

في ظلال القرآن.. "الأخدود" لا يزال منصوبًا للأقليات المسلمة!



22 ديسمبر 2019

والسماوات ذات البروج (1) واليوم الموعود (2) وشاهد ومشهود (3) قتل أصحاب الأخدود (4) النار ذات الوقود (5) إذ هم عليها قعود (6) وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود (7) وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد (8) الذي له ملك السماوات والأرض والله على كل شيء شهيد (9) إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق (10) إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير (11) إن بطش ربك لشديد (12) إنه هو بيئد ويبعد (13) وهو الغفور الودود (14) ذو العرش المجيد (15) فعال لما يريد (16) هل أتاك حديث الجنود (17) فرعون وثمود (18) بل الذين كفروا في تكذيب (19) والله من ورائهم محيط (20) بل هو قرآن مجيد (21) في لوح محفوظ (22) (سورة البروج)

من تراث الشهيد/ سيد قطب

هذه السورة القصيرة تعرض حقائق العقيدة، وقواعد التصور الإيماني.. أمورا عظيمة وتنشع حولها أضواء قوية بعيدة المدى، وراء المعاني والحقائق المباشرة التي تعبر عنها نصوصها حتى لتكاد كل آية - وأحيانا كل كلمة في الآية - أن تفتح كوة على عالم مترامي الأطراف من الحقيقة..

والموضوع المباشر الذي تتحدث عنه السورة هو حادث أصحاب الأخدود.. والموضوع هو أن فئة من المؤمنين السابقين على الإسلام - قيل إنهم من النصارى الموحدين - ابتلوا بأعداء لهم طغاة فساءة شريرين، أرادوهم على ترك عقيدتهم والارتداد عن دينهم، فأبوا وتمنعوا بعقيدتهم. فشق الطغاة لهم شقا في الأرض، وأوقدوا فيه النار، وكبوا فيه جماعة المؤمنين فماتوا حرقا، على مرأى من الجموع التي حشدتها المتسلطون لتشهد مصرع الفئة المؤمنة [ص: 3872] بهذه الطريقة البشعة، ولكي يتلهى الطغاة بمشهد الحريق. حريق الآدميين المؤمنين: وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ..

بدأ السورة بقسم: والسماوات ذات البروج، واليوم الموعود، وشاهد ومشهود، قتل أصحاب الأخدود..

فتربط بين السماء وما فيها من بروج هائلة، واليوم الموعود وأحداثه الضخام، والحشود التي تشهده والأحداث المشهودة فيه.. تربط بين هذا كله وبين الحادث ونقمة السماء على أصحابه البغاة.

ثم تعرض المشهد المفجع في لمحات خاطفة، تودع المشاعر بشاعة الحادث بدون تفصيل ولا تطويل.. مع التلميح إلى عظمة العقيدة التي تعالت على فتنة الناس مع شدتها، وانتصرت على النار وعلى الحياة ذاتها، وارتفعت إلى الأوج الذي يشرف الإنسان في أجياله جميعا. والتلميح إلى بشاعة الفعلة، وما يكمن فيها من بغي وشر وتسفل، إلى جانب ذلك الارتفاع والبراءة والتطهر من جانب المؤمنين: النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ..

عد ذلك تجيء التعقيبات المتوالية القصيرة متضمنة تلك الأمور العظيمة في شأن الدعوة والعقيدة والتصور الإيماني الأصيل:

إشارة إلى ملك الله في السماوات والأرض وشهادته وحضوره تعالى لكل ما يقع في السماوات والأرض: الله الذي له ملك السماوات والأرض. والله على كل شيء شهيد ..

وإشارة إلى عذاب جهنم وعذاب الحريق الذي ينتظر الطغاة الفجرة السفلة؛ وإلى نعيم الجنة ... ذلك الفوز الكبير.. الذي ينتظر المؤمنين الذين اختاروا عقيدتهم على الحياة، وارتفعوا على فتنة النار والحريق: إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات - ثم لم يتوبوا - فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار. ذلك الفوز الكبير ..

وتلويح ببطش الله الشديد، الذي بيئد ويبعد: إن بطش ربك لشديد. إنه هو بيئد ويبعد .. وهي حقيقة تتصل اتصالا مباشرا بالحياة التي أزهقت في الحادث، وتلقي وراء الحادث إشعاعات بعيدة..

يعد ذلك بعض صفات الله تعالى. وكل صفة منها تعني أمرا..

وهو الغفور الودود الغفور للتائبين من الإثم مهما عظم وبشع. الودود لعباده الذين يختارونه على كل شيء. والود هنا هو البليسم المريح لمثل تلك القروح!

ذو العرش المجيد. فعال لما يريد .. وهي صفات تصور الهيمنة المطلقة، والقدرة المطلقة، والإرادة المطلقة.. وكلها ذات اتصال بالحدث.. كما أنها تطلق وراءه إشعاعات بعيدة الآماد.

ثم إشارة سريعة إلى سوابق من أخذه للطغاة، وهم مدججون بالسلاح.. هل أتاك حديث الجنود. فرعون وثمود؟ وهما مصرعان متنوعان في طبيعتهما وآثارهما. ووراءهما - مع حادث الأخدود - إشعاعات كثيرة.

في الختام يقرر شأن الذين كفروا وإحاطة الله بهم وهم لا يشعرون: بل الذين كفروا في تكذيب. والله من ورائهم محيط ..

ويقرر حقيقة القرآن، وثبات أصله وحياطته: بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ .. مما يوحي بأن ما يقرره هو القول الفصل والمرجع الأخير، في كل الأمور.

نذه لمحات مجملة عن إشعاعات السورة ومجالها الواسع البعيد. تمهد لاستعراض هذه الإشعاعات بالتفصيل:

تبدأ السورة - قبل الإشارة إلى حادث الأخدود - بهذا القسم: بالسماء ذات البروج، وهي إما أن تكون أجرام النجوم الهائلة وكأنها بروج السماء الضخمة أي قصورها المبنية، كما قال: والسماء ببنائها بأيد وإنا لموسعون .. وكما قال أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها .. وإما أن تكون هي المنازل التي تنتقل فيها تلك الأجرام في أثناء دوراتها، وهي مجالاتها التي لا تعداها في جرياتها في السماء. والإشارة إليها يوحي بالضخامة. وهو الظل المراد إلقاؤه في هذا الجو.

واليوم الموعود .. وهو يوم الفصل في أحداث الدنيا، وتصفية حساب الأرض وما كان فيها. وهو الموعود الذي وعد الله بمجيئه، ووعد بالحساب والجزاء فيه؛ وأمهل المتخاصمين والمتخاصين إليه. وهو اليوم العظيم الذي تتطلع إليه الخلائق، وترقبه لترى كيف تصير الأمور.

وشاهد ومشهود .. في ذلك اليوم الذي تعرض فيه الأعمال، وتعرض فيه الخلائق، فتصبح كلها مشهودة، ويصبح الجميع شاهدين.. ويعلم كل شيء. ويظهر مكشوفاً لا يستتره ساتر عن القلوب والعيون..

وتلتقي السماء ذات البروج، واليوم الموعود، وشاهد ومشهود.. تلتقي جميعاً في إلقاء طلال الاهتمام والاحتفال والاحتشاد والضخامة على الجو الذي يعرض فيه بعد ذلك حادث الأخدود.. كما توحى بالمجال الواسع الشامل الذي يوضع فيه هذا الحادث. وتوزن فيه حقيقته وبصفي فيه حسابه.. وهو أكبر من مجال الأرض، وأبعد من مدى الحياة الدنيا وأجلها المحدود..

يعد رسم هذا الجو، وفتح هذا المجال، تجيء الإشارة إلى الحادث في لمسات قلائل:

قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود. وما نعموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد. الذي له ملك السماوات والأرض، والله على كل شيء شهيد ..

وتبدأ الإشارة إلى الحادث بإعلان النعمة على أصحاب الأخدود: قتل أصحاب الأخدود .. وهي كلمة تدل على الغضب. غضب الله على الفعلة وفاعلها. كما تدل على شناعة الذنب الذي يثير غضب الحليم، ونقمته، ووعيده بالقتل لفاعلها.

ثم يجيء تفسير الأخدود: النار ذات الوقود والأخدود: الشق في الأرض. وكان أصحابه قد شقوه وأوقدوا فيه النار حتى ملأوه نارا، فصارت النار بدلا في التعبير من الأخدود للإيحاء بثلث النار فيه كله وتوقدها.

قتل أصحاب الأخدود، واستحقوا هذه النعمة وهذا الغضب، في الحالة التي كانوا عليها وهم يرتكبون ذلك الإثم، ويزاولون تلك الجريمة: إذ هم عليها قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود .. وهو تعبير يصور موقفهم ومشهدهم، وهم يوقدون النار، ويلقون بالمؤمنين والمؤمنات فيها وهم قعود على النار، قريبون من عملية التعذيب البشعة، يشاهدون أطوار التعذيب، وفعل النار في الأجسام في لذة وسعار، كأنما يثبتون في حسهم هذا المشهد البشع الشنيع!

وما كان للمؤمنين من ذنب عندهم ولا تار: وما نعموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد. الذي له ملك السماوات والأرض. والله على كل شيء شهيد .. فهذه جريمتهم أنهم آمنوا بالله، العزيز: القادر على ما يريد، الحميد: المستحق للحمد في كل حال، والمحمود بذاته ولو لم يحمد الجاهل! وهو الحقيق بالإيمان وبالعبودية له. وهو وحده الذي له ملك السماوات والأرض وهو يشهد كل شيء وتتعلق به إرادته تعلق الحضور.

ثم هو الشهيد على ما كان من أمر المؤمنين وأصحاب الأخدود.. وهذه لمسة تطمئن قلوب المؤمنين، وتهدد العتاة المتجبرين. فالله كان شهيدا. وكفى بالله شهيدا.

وتنتهي رواية الحادث في هذه الآيات القصار، التي تملأ القلب بشحنة من الكراهية لبشاعة الفعلة وفاعلها، كما تستجيش فيه التأمل فيما وراء الحادث ووزنه عند الله وما استحقه من نقمته وغضبه. فهو أمر لم ينته بعد عند هذا الحد، ووراءه في حساب الله ما وراءه.

كذلك تنتهي رواية الحادث وقد ملأت القلب بالروعة. روعة الإيمان المستعلي على الفتنة، والعقيدة المنتصرة على الحياة، والانطلاق المتجرد من أوهام الجسم وجاذبية الأرض. فقد كان في مكنة المؤمنين أن ينجوا بحياتهم في مقابل الهزيمة لإيمانهم. ولكن كم كانوا يخسرون هم أنفسهم في الدنيا قبل الآخرة؟ وكم كانت البشرية كلها تخسر؟ كم كانوا يخسرون وهم يقتلون هذا المعنى الكبير: معنى زهادة الحياة بلا عقيدة، وبشاعتها بلا حرية، وانحطاطها حين يسيطر الطغاة على الأرواح بعد سيطرتهم على الأجساد! إنه معنى كريم جدا ومعنى كبير جدا هذا الذي ربحوه وهم بعد في الأرض. ربحوه وهم يجدون مس النار فتحترق أجسادهم، وينتصر هذا المعنى الكريم الذي تزكیه النار؟ وبعد ذلك لهم عند ربهم حساب، ولأعدائهم الطاغين حساب.. يعقب به السياق..

إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات - ثم لم يتوبوا - فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار. ذلك الفوز الكبير ..

إن الذي حدث في الأرض وفي الحياة الدنيا ليس خاتمة الحادث وليس نهاية المطاف. فالبقية آتية هناك. والجزاء الذي يضع الأمر في نصابه، ويفصل فيما

كان بين المؤمنين والطاغين آت. وهو مقرر مؤكد، وواقع كما يقول عنه الله:

إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات .. ومضوا في ضلالتهم سادرين، لم يندموا على ما فعلوا ثم لم يتوبوا .. فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق .. وينص على "الحريق" .. وهو مفهوم من عذاب جهنم. ولكنه ينطق به وينص عليه ليكون مقابلا للحريق في الأخدود. وينفس اللفظ الذي يدل على الحدث. ولكن أين حريق من حريق؟ في شدته أو في مدته! وحريق الدنيا بنار يوقدها الخلق. وحريق الآخرة بنار يوقدها الخالق! وحريق الدنيا لحطات وتنتهي، وحريق الآخرة أبدا لا يعلمها إلا الله! ومع حريق الدنيا رضى الله عن المؤمنين وانتصار لذلك المعنى الإنساني الكريم. ومع حريق الآخرة غضب الله، والارتكاس الهابط الذميمة!

ويتمثل رضى الله وإنعامه على الذين آمنوا وعملوا الصالحات في الجنة: إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار .. وهذه هي النجاة الحقيقية: ذلك الفوز الكبير .. والفوز: النجاة والنجاح. والنجاة من عذاب الآخرة فوز. فكيف بالجنات تجري من تحتها الأنهار؟

بهذه الخاتمة يستقر الأمر في نصابه. وهي الخاتمة الحقيقية للموقف. فلم يكن ما وقع منه في الأرض إلا طرفا من أطرافه، لا يتم به تمامه .. وهذه هي الحقيقة التي يهدف إليها هذا التعقيب الأول على الحادث لتستقر في قلوب القلة المؤمنة في مكة، وفي قلوب كل فئة مؤمنة تتعرض للفتنة على مدار القرون.

ثم تتوالى التعقيبات ..

إن بطش ربك لشديد .. وإظهار حقيقة البطش وشدته في هذا الموضوع هو الذي يناسب ما مر في الحادث من مظهر البطش الصغير الهزيل الذي يحسبه أصحابه ويحسبه الناس في الأرض كبيرا شديدا. فالبطش الشديد هو بطش الجبار. الذي له ملك السماوات والأرض. لا بطش الضعاف المهازيل الذين يتسلطون على رقعة من الأرض محدودة، في رقعة من الزمان محدودة ..

ويظهر التعبير العلاقة بين المخاطب - وهو الرسول - صلى الله عليه وسلم - والقائل وهو الله عز وجل. وهو يقول له: إن بطش ربك .. ربك الذي تنتسب إلى ربوبيته، وسندك الذي تركن إلى معونته .. ولهذه النسبة قيمتها في هذا المجال الذي يبطش فيه الفجار بالمؤمنين!

إنه هو يبدئ ويعيد .. والبدء والإعادة وإن اتجه معناه الكلي إلى النشأة الأولى والنشأة الآخرة .. إلا أنهما حدثان دائبان في كل لحظة من ليل أو نهار. ففي كل لحظة بدء وإنشاء، وفي كل لحظة إعادة لما بلى ومات. والكون كله في تجدد مستمر .. وفي بلى مستمر .. وفي ظل هذه الحركة الدائبة الشاملة من البدء والإعادة يبدو حادث الأخدود ونتائج الظاهرة مسألة عابرة في واقع الأمر وحقيقة التقدير. فهو بدء لإعادة. أو إعادة لبدء. في هذه الحركة الدائبة الدائرة ..

وهو الغفور الودود .. والمغفرة تتصل بقوله من قبل: ثم لم يتوبوا .. فهي من الرحمة والفضل الفائض بلا حدود ولا قيود. وهي الباب المفتوح الذي لا يغلق في وجه عائد تائب. ولو عظم الذنب وكبرت المعصية .. أما الود .. فيتصل بموقف المؤمنين، الذين اختاروا ربهم على كل شيء. وهو الإناس اللطيف الحلو الكريم. حين يرفع الله عباده الذين يؤثرونه ويحيونه إلى مرتبة، يتحرج القلم من وصفها لولا أن فضل الله وجود بها .. مرتبة الصداقة .. الصداقة بين الرب والعبد .. ودرجة الود من الله لأودائه وأحبائه المقربين .. فماذا تكون الحياة التي ضحوا بها وهي ذاهية؟ وماذا يكون العذاب الذي احتملوه وهو موقوت؟ ماذا يكون هذا إلى جانب قطرة من هذا الود الحلو؟ وإلى جانب لمحة من هذا الإناس الحبيب؟

إن عبيدا من رقيق هذه الأرض. عبيد الواحد من البشرية، ليلقون بأنفسهم إلى التهلكة لكلمة تشجيع تصدر من فمه، أو لمحة رضاء تبدو في وجهه .. وهو عبد وهم عبيد .. فكيف بعباد الله. الذين يؤنسهم الله بوجهه الكريم الجليل، الله ذو العرش المجيد العالي المهيمن الماجد الكريم؟ ألا هانت الحياة. وهان الألم. وهان العذاب. وهان كل غال عزيز، في سبيل لمحة رضى وجود بها المولى الودود ذو العرش المجيد ..

فعال لما يريد .. هذه صفته الكثيرة التحقق، الدائبة العمل .. فعال لما يريد .. فهو مطلق الإرادة، يختار ما يشاء؛ ويفعل ما يريد ويختاره، دائما أبدا، فتلك صفته سبحانه.

يريد مرة أن ينتصر المؤمنون به في هذه الأرض لحكمة يريد بها. ويريد مرة أن ينتصر الإيمان على الفتنة وتذهب الأجسام الفانية لحكمة يريد بها .. يريد مرة أن يأخذ الجبارين في الأرض. ويريد مرة أن يمهلهم لليوم الموعود .. لحكمة تتحقق هنا وتتحقق هناك، في قدره المرسوم ..

فهذا طرف من فعله لما يريد. يناسب الحادث ويناسب ما سيأتي من حديث فرعون وثمود. وتبقى حقيقة الإرادة الطليقة والقدرة المطلقة وراء الأحداث ووراء الحياة والكون تفعل فعلها في الوجود.

فعال لما يريد. وهما نموذجان من فعله لما يريد:

هل أتاك حديث الجنود: فرعون وثمود؟ . وهي إشارة إلى قصتين طويلتين، ارتكنا إلى المعلوم من أمرهما للمخاطبين، بعد ما ورد ذكرهما كثيرا في القرآن الكريم. ويسميهم الجنود. إشارة إلى قوتهم واستعدادهم .. هل أتاك حديثهم؟ وكيف فعل ربك بهم ما يريد؟

وهما حديثان مختلفان في طبيعتهما وفي نتائجهما .. فأما حديث فرعون، فقد أهلكه الله وجنده ونجى بني إسرائيل، ومكن لهم في الأرض فترة، ليحقق بهم قدرا من قدره، وإرادة من إرادته. وأما حديث ثمود فقد أهلكهم الله عن بكرة أبيهم وأنجى صالحا والقلة معه حيث لم يكن لهم بعد ذلك ملك ولا تمكين. إنما هي مجرد النجاة من القوم الفاسقين.

وهما نموذجان لفعل الإرادة، وتوجه المشيئة. وصورتان من صور الدعوة إلى الله واحتمالاتها المتوقعة، إلى جانب الاحتمال الثالث الذي وقع في حادث الأخدود .. وكلها يعرضها القرآن للقلة المؤمنة في مكة، ولكل جيل من أجيال المؤمنين ..

في الختام يجيء إيقاعان قويان جازمان. في كل منهما تقرير، وكلمة فصل وحكم أخير:

ل الذين كفروا في تكذيب، والله من ورائهم محيط ..

فشأن الكفار وحقيقة حالهم أنهم في تكذيب يمسون به ويصبحون. والله من ورائهم محيط .. وهم غافلون عما يحيط بهم من قهر الله وعلمه. فهم أضعف من الفيران المحصورة في الطوفان العميم!

بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ ..

المجيد الرفيع الكريم العريق.. وهل أمجد وأرفع وأعرق من قول الله العظيم؟ وهو في لوح محفوظ.

لا ندرك نحن طبيعته، لأنه من أمر الغيب الذي تفرد الله بعلمه. إنما ننتفع نحن بالظل الذي يلقيه التعبير، والإبهاء الذي يتركه في القلوب. وهو أن هذا القرآن مصون ثابت، قوله هو المرجع الأخير، في كل ما يتناوله من الأمور. يذهب كل قول، وقوله هو المرعي المحفوظ..

لقد قال القرآن قوله في حادث الأخدود، وفي الحقيقة التي وراءه.. وهو القول الأخير..

www.ikhwanonline.com/article/237915